obeikandl.com

obeikandl.com

إهـــداء

إلـــــى أخـــى الحبيـــب/ محمـــود

إن كـــان الموت قـــد غيبك عنـــى

فستظل دومـًا حيًّا فى قلبى.

أمل مبروك

obeikandl.com

المقدمة

obeikandl.com

obeikandl.com

من أين جئنا؟ ومن نكون؟ وإلى أين نمضي؟

أسئلة أثارها الإنسان في كل زمان ومكان، دون أن يتمكن يوماً من الإجابة عليها إجابة كافية. وقد يقنع الإنسان أحياناً بإثارة التساؤل عن "معنى الحياة" طالما يحيا، ذلك لأنه الكائن الوحيد الذي يشعر دائماً بأنه "موجود"، وأن وجوده واقعة يجب أن يتقبلها ويرضى عنها؛ لأنه وجد نفسه على الرغم منه مسلوب الإرادة. ومن هذا المنطلق، يُقبل الإنسان على الحياة ويندفع في تيارها المتدفق مقبلاً عليها بجماع نفسه، منتقلاً من طور إلى طور. ولا يكاد يفرغ من مرحلة حتى يتطلع إلى أخرى، يحدوه الأمل تارة، ويتملكه اليأس تارة أخرى؛ لكنه يشعر دائماً ـ رغم ذلك ـ أن "الحياة" هي القيمة الكبرى التي تنتظم بالقياس إليها سائر القيم الأخرى.

إذا تساءل الإنسان ـ في لحظات الضيق واليأس ـ لماذا أحيا؟ وما معنى الحياة؟ وهل تستحق الحياة أن تُعاش؟ وإذا وصل به الحال إلى حد القنوط واليأس المفرط وقال: "إنها حياة كالموت". لن تفهم عبارته هذه إلا على أنها وجه من أوجه التشبيه، فقد شبه حياته، في لحظات يأسه، بالموت. وأحياناً كثيرة لم يأخذ هذه العبارة مأخذ "الجد"، ويكفي أن يتصور وهو ينطق هذه العبارة "شبح الموت" ماثلاً أمامه حتى يسحب كلماته وينكرها أمام نفسه، ورغم ذلك يحاول إقناع ذاته بأنه لم يقل ما قاله إلا على سبيل المزاح لا الجد.

والسبب في ذلك، هو موضوع "الموت" نفسه، فالموت ينطوي على كثير من المفارقات والتناقضات؛ وهو أيضاً موضوع كريه مزعج لا يشجع على التفكير فيه أو الحديث عنه. والظاهر أن الناس قد فطنوا إلى ذلك ـ من قديم الزمان ـ فنراهم قد دأبوا على نسيان الموت أو تناسيه بشتى الحيل والأساليب. وقد وضح "بسكال" هذه الفكرة ورأى "أنه لما كان الناس لم يجدوا علاجاً للموت والشقاء والجهل، فإنهم قد وجدوا أن خير الطرق لأن ينعموا بالسعادة ألا يفكروا في هذه الأمور على الإطلاق".

وهنا يرى بعض المفكرين أن الحياة ما هي إلا الموت نفسه، لأن الإنسان يشرع في الموت بمجرد أن يولد، وهذه الفترة المحدودة التي يحياها هي المدة التي تستغرقها عملية وفاته. وقد صور لنا هذا الموقف تصويراً رائعاً "لافونتين"(*) في إحدى حكاياته الشهيرة التي أسماها "الموت والحطاب" يقول:

> **"ما بالك وأنا أحاول الآن أن أجعلك ترى في الحياة ما رأيت أنا فيها من أنها هي "الموت". وأنا إذ أقول ذلك لا أمزح بل أقول الجد عين الجد، ولا أقول أن الحياة هي الموت في فترات اليأس والعزوف والابتعاد عنها فحسب، بل أصفها بذلك في أفراحها وأتراحها، في حلوها ومرها، في كل لحظة يمر فيها المرء؛ ولا يعنيني إذا كانت هذه اللحظة لحظة سعادة أم شقاء".**

وفقاً للرأي السابق، فإن الإنسان لا يحيا إلا وهو يموت، وهو إذ يمتع العين والقلب والفكر ويحيا الحياة بكل صورها ـ أي يمشي ويتحرك ويحس ويفرح ويحزن ويفكر ـ لا يفعل كل هذا إلا وهو ينسج بيده خيوط فنائه وموته. ذلك لأن كل لحظة يمر بها هي لحظة نحو الفناء. لكن الإنسان يعرف حقيقة أنه لا محال "ميت" ، لكنه لا يحاول أبداً أن يواجه هذه الحقيقة، وحتى لو كانت لديه الشجاعة الكافية لمواجهتها، فإنه لم يلبث إلا أن يقول لنفسه "لا حياة إلا عن هذا الطريق". إنه يحيا ويعلن عن وجوده في كل لحظة، لكن حياته ـ في الحقيقة ـ تقتضي الموت حتماً، حياة أشبه ما تكون بمجموعة الأنغام الموسيقية المتناسقة،

(*) "لافونتين" (1621 ـ 1695) من أكبر شعراء فرنسا فى القرن السابع عشر، ولد فى إقليم شمبانيا بفرنسا، واطلع على الروائع الأدبية فى مكتبة جده الغنية بالنفائس ؛ فدرس أعمال "مارلو" و"رابليه" وغيرهما من أعلام الأدب آنذاك، انتقل "لافونتين" من الريف إلى باريس حيث لم يلبث أن سطع نجمه وذاع صيته فى عالم الأدب. كتب عدداً من الأعمال الكوميدية أهمها "الإغا" وألف مأساة تراچيدية لم يتمها وهى صوت "أخيليوس"، لكن الإنتاج الوحيد الذي كان يتناسب مع عبقريته الأدبية هو "الحكايات" التي صاغها على ألسنة الحيوانات. كان "لافونتين" ينظر إلى الأشياء من خلال رؤية نافذة تكشف عن كوامن النفس، وقد تملكه إحساس قوى بعبثية الحياة وتفاهتها.

فكما أن الانسجام الموسيقي بين هذه الأنغام لا يصل إلى أعلى درجاته إلا عند النقطة التي يسميها الموسيقيون بـــ "نقطة الأوج" (وهي النقطة التي تنتشر فيها الموجات الصوتية وتضعف بسعة المساحة التي تنتشر فيها) كذلك الحياة، فإنها لا تصل إلى أعلى درجاتها إلا إذا اقتربت شيئاً فشيئاً من الفناء.

وسواء اصطلحنا على تسمية حياة الإنسان تلك بأنها حياة، أو على النظر إليها بوصفها مقدمة للموت أو هي الموت نفسه؛ فلا حيلة لنا في هذا كله، ليس أمامنا طريق غير هذا. علينا أن نتقبل مصيرنا المحتوم، علينا أن نسير في طريقنا مدفوعين بإرادة الحياة (كما يسميها شوبنهور) أو بالقوة الحيوية (كما يسميها برجسون)، علينا أن نسير في هذا الطريق حتى ننال ما قدر لنا أن ننالـه.

ومن هنا جاء اختيارنا لموضوع هذا البحث "فلسفة الموت" ـ دراسة تحليلية، وقمنا بتقسيمه إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة على النحو الآتي:

الفصل الأول: عنوانه "أسطورة الموت"، أوضحنا فيه كيف حاول الإنسان الاقتراب من مسألة الموت عن طريق ابتكار مجموعة من الرموز تصدر من أعماق الدراما الأسطورية وتعبر أيضاً عن حاجة عميقة للتحرر والخروج نهائياً من دائرة الفناء. وفي إطار ذلك عرضنا لـــ "تجسيد الموت في الحضارة المصرية"، وبينا كيف كان الموت واحداً من أهم مفاتيح هذه الحضارة العريقة، وكيف كان إيمان المصري القديم بحياة أخرى ثانية حقيقة تؤكدها آثاره المنتشرة في كل مكان من أرض مصر. كما تحدثنا ـ في هذا الفصل ـ عن "لغز الموت في بلاد ما بين النهرين"، فقد وعى هذا الفكر الأسطوري مسألة الحياة والموت، ضمن حركة التناوب بين الأسود والأبيض. فالليل والنهار رمزان متجسدان لحقيقة واحدة، جعلت من الموت وجوداً متعادلاً مع الحياة. وقد ساهم هذا التصور في تكوين القناعة البشرية، بأن ساعة الخلاص لابد أن تأتي أخيراً. فالإنسان ـ في ظل هذا المفهوم ـ لم يكن خائفاً من الموت في حد ذاته، بقدر ما كان خائفاً من المجهول المظلم. كما ركزنا ـ في خاتمة الفصل ـ على "جحيم الموت في

الأسطورة اليونانية" التي بالغت في تضخيم فكرة الموت، وأعطت للجحيم صوراً مرعبة. فكلما ازداد وصف الجحيم دقة وتفصيلاً ـ ومبالغة وتأثيراً ـ ازدادت شحنة الخوف، وترعرع الرعب في أعماق النفوس. ومرد ذلك يعود إلى نوع من الضرورة، في مجتمع يعشق الحكمة ويسعى للبحث عن الحقيقة؛ ويحاول تحقيق الخير في مفهومه الإنساني الشامل. وما دام الموت حقيقة أزلية، فإن الجحيم لابد أنه آت في يوم من الأيام.

أما الفصل الثاني فقد جعلنا عنوانه: "الوعي بالموت"، إذ أكدنا في هذا الفصل أن الإنسان يعي تماماً أن وجوده سينتهي إلى الموت دون معرفة الزمان أو المكان أو حتى الطريقة التي يموت بها، وبالتالي يعرف عن طريق التجربة "حتمية الموت". وفي هذا السياق تحدثنا عن "حدث الموت" عند الإنسان البدائي الذي يعمد إلى تفسيره بغير الأسباب الطبيعية، لأن تصوره يتجه فوراً إلى فعل القوى الغيبية. لكن يمكن اكتشاف حتمية الموت حينما يتجاوز الإنسان العقلية البدائية وينشأ لديه التفكير المنطقي. وقد عرضنا أيضاً لـــ "واقعة الموت"، فعندما يتحقق الإنسان من أن الموت هو فناء شامل؛ يغمره شعور بعبثية الحياة وعدم جدواها. فالموت لم يكن رقاداً يحفه السلام، كذلك لم يكن الوجود الأفضل ولا الأكثر سعادة في العالم الآخر؛ لقد كان المعتقد أن الموتى يصبحون أشباحاً لا تدب الدماء في عروقها، تهيم ضائعة في العالم السفلي. وفي مواجهة هذه الرؤية المحبطة للموت، طرح الإغريق المثل الأعلى للموقف البطولي إزاءه حيث اعتبروا الموت ذروة الحياة وقمة اكتمالها. كما أسهبنا في الحديث عن "تأمل الموت" فعرضنا مواجهة سقراط للموت، وكيف أنه أيقظ بأفكاره حنين الإنسان العميق إلى أن يرى شخصيته الواعية تستمر عقب الموت. وقد ترك موت سقراط ظلاً كثيفاً على أفكار أهم تلاميذه وهو "أفلاطون" الذي احتل مفهوم الموت في فلسفته حيزاً مهماً، إلى حد أنه قد جعل هدف الفلسفة الأول لا يخرج عن حدود "تأمل الموت". أما "أرسطو" فقد انتقل من خلود النفس ـ كما طرحه "أفلاطون" ـ إلى خلود العقل، لأن العقل لا يفنى عند الموت.

وقد خصصنا الفصل الثالث للحديث عن "الخوف من الموت"، فالإنسان يخشى الموت لأنه يعلم أنه باطن في صميم حياته، فهو لا يموت لأنه يمرض أو يهرم أو يضعف، بل لأنه يحيا. وإذا حللنا عناصر "الخوف من الموت" نراها ناجمة عن تصور رهبة الهوة التي سوف يغيب فيها الإنسان عند موته (وهي الهوة الفارغة أبداً أمامه) وعن الإحساس بهروب الزمن الذي لا يمكن استعادته، كذلك عن الصعوبة التي يحدثها انقطاع الصلات بمن وبما يتعلق به الإنسان في حياته. وكان من الضروري أن نستعرض كيف أخذت الفلسفة على عاتقها مواجهة الموقف المقلق تجاه الموت، وكيف نادت بضرورة التأقلم والتحرر تماماً من الخوف الناتج عنه، وتأكيد فناء النفس وانعدامها الشامل. وتمثل "الأبيقورية" و"الرواقية" رد فعل تجاه الأثر الجانبي لكل نظرية تنفي نهائية الموت والخوف من العالم الآخر. وتوقفنا طويلاً ـ في هذا الفصل ـ أمام "فزع الموت"، فعلى الرغم من التأكيد المستمر بأن الموت خير من الحياة، فإن الفزع منها كان عاماً. وهذا المنطلق العام، هو الذي كسا الفكر المسيحي بالسواد طيلة زمن طويل، فلا شيء باق وكل شيء يذوي؛ مما جعل حلم "اللاموت مستحيلاً". كذلك تحدثنا عن اهتمام العديد من المفكرين الإسلاميين [سواء من الفلاسفة أو المتصوفة] بظاهرة "الخوف من الموت"، فتطرق إليها "ابن مسكويه" و"أبو حيان التوحيدي" و"الغزالي" و"ابن عربى". وأنهينا الفصل بالحديث عن "رهبة الموت"، فالإنسان لم يختر ميلاده، ولا حياته، ولا زمنه، ولا مجتمعه، ولا موته؛ فهو يدخل إلى الدنيا مجبراً كارهاً، ويخرج منها مجبراً كارهاً. هكذا أعلن "أبو العلاء المعرى" في رسالة الغفران أن الموت هو أفضل الأشياء، فمصير الإنسان أن يجتاز الحياة وينتظر الموت. كذلك خرج "دانتى" في الكوميديا الإلهية من البؤس في الحياة الدنيا، إلى طريق الخلاص والسعادة في الحياة الآخرة. كما رأى "مونتانى" أن الحياة مقدر عليها بالموت، ذلك الموت الذي يتهددها في كل لحظة؛ فعلى المرء أن يتعلم التعايش مع هذه الفكرة. أما "بسكال" فقد رأى، أنه ليس هناك خير في الحياة إلا الأمل في حياة أخرى، ولا يكون المرء سعيداً إلا بقدر اقترابه من هذا الأمل. لكن

جوهر الحياة عند "شوبنهور" هو الشقاء. فالإنسان عندما نفذ إلى أعماق الوجود، ألفى أن ماهيته الأصلية هي الشقاء، ورأى أن وجوده ما هو إلا سقوط مستمر في الموت.

إذا انتقلنا إلى الفصل الرابع فسنجد عنوانه: "الوجود نحو الموت"، تناولنا فيه موقف الفلسفة الوجودية تجاه الموت، وكيف حولت انتباهنا من الموت كواقعة يمكن أن نلاحظها بوصفها الانقطاع العنيف للحياة ـ أو على أنها نهاية الحياة ـ إلى الوعي الداخلي للموجود البشري بأن وجوده يمضي قدماً نحو الموت. وعرضنا ـ في هذا الفصل ـ لـ "القلق إزاء الموت"، وهو القلق إزاء أخص إمكانات الذات التي تجردت من كل علاقة، واستحالت من كل تخط أو نجاة. والقلق ليس حالة ضعف تنتاب الذات البشرية، وإنما هو تأثر وجداني تشعر به الذات في صميم وجودها العينى. في هذا الصدد عرضنا لمفهوم "المرض حتى الموت" عند "كيركجور"، الذي هو حالة موت يحياها الإنسان وسط الحياة. كذلك أصبح الموت من المواقف الأساسية عند "يسبرز"، فلا يكفي أن نحيط علماً بالموت أو حتى أن نعنى بأمر موتنا؛ وإنما يتعين علينا أن ندرك الموت كموقف مطلق. كما تحدثنا أيضاً عن "سر الموت" الذي يمكن أن يتكشف لنا من خلال التجارب، والخبرات، والمعطيات الروحية. إذ يعاني الإنسان ضروب الأسى إزاء الفرص المهدورة في الحياة، ويتملكه الحزن النابع من الفراق الذي يبدو قاطعاً لمن يحبهم. وهذا بالفعل ما أدركه "مارسل" حينما نظر إلى مشكلة الموت بوصفها صراعاً بين الحب والموت، فالشعور الحقيقي إنما يكون حينما نفقد الشخص الذي نحبه. ومع "صمت الموت" الذي يتضح فيه كل شيء، تحدث "كامى" عن تجربة "العبث" وتجربة "الموت" التي تعطي الإحساس باللامعقول أو عدم جدوى الحياة. ومن هنا رأى أننا لا نملك تجربة الموت، فهذه التجربة لا يعرفها إلا من يموت؛ وهو يأخذها معه إلى القبر. أما العنصر الأخير، في هذا الفصل، فقد تحدثنا فيه عن "الحرية تجاه الموت"، فالحرية تكمن في قدرة الإنسان على تجاوز ذاته؛ هذا التجاوز يتجه دائماً نحو المستقبل. ولا يقف الشروع المستمر نحو المستقبل، إلا حين يحدث الموت

ويتلاشى الوعي وينتهي كل ما كان ممكناً. ولذلك ينظر "هيدجر" إلى الموت بوصفه أعلى إمكانية من إمكانات الوجود الإنسانى. أما "سارتر"، فيرى أنه ليس بوسعنا أن نفكر في الموت أو ننتظره أو نسلح أنفسنا ضده، ولكن مشروعاتنا مستقلة عن الموت. فالموت ليس عقبة تقف في سبيل مشروعاتى، وإنما هو مجرد مصير يقع في مجال آخر بالنسبة لهذه المشروعات.

أما الفصل الخامس والأخير الذي عنوانه: "سيكولوجيا الموت"، فقد أوضحنا فيه كيف توصلت الجهود العلمية لرصد ظاهرة الموت وبخَّاصة في مجال "علم النفس" الذي يستكشف ـ بطريقة علمية ـ العنصر النفسى في محاولة لاستبطان بنية العالم الداخلي للإنسان. وهذا الأمر أدى لانتقال البحث من مستوى النظرة الميتافيزيقية للنفس إلى مستوى تحليل قواها الفاعلة، ومعرفة وظائفها الأساسية. فكيف ينعكس الموت داخل النفس؟ وكيف يتجلى؟ هل هناك فرق بين وعى الموت بشكله الموضوعي، ووعى الموت الداخلي الذاتي؟ من هذا المنطلق عرضنا لفكرة "القاع النفسي للموت"، وبينا التمايز بين "الشعور" و"اللاشعور" في خلق دينامية الحياة النفسية. فبالتأكيد حين نقف أمام لحظة الموت، يفاجئنا هذا الانقسام النفسي الخاص وندرك أن في أعماقنا شيئاً ما لم يمت بعد، وأن في أعماقنا شيئاً ما قد مات بالفعل. وهنا تظهر الفاعلية اللاشعورية التي تستمد قوتها من غريزة حب البقاء وغريزة الموت، لذلك تبدو فكرة الموت، وحتى ما بعد الموت حلماً دائماً يكمن في اللاشعور. واستطاع فرويد أن يكتشف أبعاداً أكثر عمقاً في ساحة الحياة النفسية للإنسان، سواء كانت شعورية أو لا شعورية، هذه الأبعاد صدرت عن قوى دينامية أساسية تسمى "الغرائز". وقد رأى أن هناك نزعة داخل الإنسان، تدفعه للميل دائماً نحو تكرار تجاربه السابقة؛ أو ما يمكن تسميته برحلة العودة نحو مراحل سابقة من النمو، هذا التصور هو الذي دفعه لطرح ما يسمى بـــ "غريزة الموت". هذه الغريزة تظل صامتة وتعمل خافية في أعماق الإنسان الذي لا يفطن إليها إلا حينما تتجه إلى الخارج وتصبح غريزة هدم. وفى إطار المفهوم السابق، عرضنا لـــ "رمزية الموت"، حيث بينا الدور الذي يلعبه

الرمز في فكرة الموت عند "لاكان"، حين استوقفه مفهوم "اللاشعور السلبى" تجاه الموت عند فرويد؛ فالإنسان يعرف أنه مقدر عليه الموت، لكنه يعيش بمعزل عن التفكير فيه. واللاشعور السلبي هو حالة رمزية تظهر في موقف الإنسان المتضارب حيال موت شخص محبوب أو مكروه. والإنسان يعترف أن الموت نهاية الحياة، وفي الوقت نفسه ينكر هذه الحقيقة ولا يرهق ذهنه بالتفكير في لغز الحياة والموت؛ ولكنه يزهو بما حققه من انتصارات ومواقف بطولية في الحياة. ومن هنا يتفق لاكان مع فرويد في أن كل غرائزنا لا تعرف الموت ولا تخشاه.

بقى أن نتساءل: عما إذا كان الإنسان يهتم حقيقة بخلوده في الحياة الدنيا، أم يسعى لتأمين خلوده في الحياة الأخرى؟ إن الجهد الكبير الذي بذله الفكر الميتافيزيقي في تأكيد أفضلية العالم الآخر، يبين لنا أن الإنسان ما زال في أعماقه يفضل الخلود في الحياة الدنيا. لكنا نقول مع "جان فــال" "إن ما يحيا هو وحده الذي يقبل الموت" و"لو عدم الموت، لما استحقت الحياة أن تعاش"، ونقول أيضاً مع "أبكتيتوس" "تباً لحياة لا تنتهي بالموت".

ونسأل الله ـ وهو مجيب الدعاء ـ أن يبدد بحثنا هذا ولو قدراً ضئيلاً من قلق الموت لدى قارئ هذا البحث.

د. أمل مبروك

* * *